أحلام مقتولة

في أوائل شهر يناير من عام ١٩٦٠م، وُلدت (أحلام) رقيقة الملامح جميلة المُحَيَّا، وبالرغم من أن قدومها جاء بعد طول انتظار، فإنها لم تملك قرارها يومًا، كانت نتاجًا لأبٍ دكتاتوريِّ القرار، أوامره تنفذ. طلباته تلبَّى بلا نقاشٍ، الخوف والرهبة هما ما كانت تحمله في قلبها وتحويه داخلها، كانت تتفوَّقُ؛ خوفًا من أبيها وعقابه، كانت تحرص على عدم ارتكاب الأخطاء؛ خوفًا منه لا حبًّا فيه، وتحرص على أن تكون هادئة مطيعة؛ حتى يفخر بها. لم تشعر يومًا بحنانه، وإن كان يبدي لها رضاه بين الحين والآخر، وكانت تسمع أحاديثَ صديقاتِها في المدرسة عن آبائهن ومشاعرهم وعلاقاتهم بذويهم، وارتباطهم بهم، وتتعجب في داخلها؛ فهي لم تفهم يومًا تلك المشاعر أو هذه العلاقات؛ فكلّ ما تعلّمته الطاعة العمياء وأن للحياة جانبين خطأ وصوابًا؛ أبيض وأسود، كم احتفظت برأيها وأخفت مشاعرها ولم تعبر عنها، وكلما زادت عدد سنوات عمرها، شعرت بأنها اكتفت من التحكم والدكتاتورية.

لم تكن والدتها بذلك الصدر الحنون أو قارب النجاة، فهي- أيضًا- سلبية تعاني من قهر زوجها، وتشعر مثلها بالخوف من إغضابه؛ إذ هي من علمتها الخضوع، وزرعت داخلها الخوف من أبيها، وطالما تجنَّبَت أن تعترضَ أو تناقشَ أو تُبْدِيَ رأيها، توالت الأيامُ بتشابهٍ وتَوْأمةٍ غريبةٍ، وتَكرارٍ مملٍّ يميت القلب والمشاعر، هكذا نبتت (أحلام) بلا حلم ولا مشاعر تفاعلية مع الآخرين؛ فقط كانت تحصي الخطأ والصواب، لمسموح والممنوع. عمرها تحسبه سنواتها الدراسية عامًا تلو عام، ويعد الآن عامها الثالث الثانويّ، وبالرغم من تفوقها الدراسي، فَقَدْ قرر أبوها ألا تلتحق بالجامعة؛ فهذا الأنسب للفتاة وقدراتها! ففي النهاية ستكون في بيت زوجها!

لأول مرة تشعر أحلام بأحاسيس لم تراودها من قبل؛ فكم تخيلت قباب الجامعة ومدرجات الدراسة ومدى اتساعها عن مدرستها، تعجبت لتساقط دموعها التي سارعت لمسحها، وذهبت لغرفتها، ولكن جرس الجامعة ظلَّ يتردَّد في أذنيها، لم يغمض لها جفن، حتى نسمات الفجر، برقت في ذهنها فكرة ومحاولة لخاصها؛ قد تفلح.

ظلت تنتظر عودة أبيها إلى البيت، وبعد تناوله الغداء، دخلت أحلام على استحياء، وأخبرت أباها برغبتها في إكمال دراستها وفي أية كلية يختارها رأيه السديد. ساد الصمت لفترة، كانت كافية لتتسمَّر أحلام في مكانها، وتشعر بجفاف حلقها؛ الذي ألجم لسانها، ليأتي ردُّ أبيها بعد تفكير بالموافقة، ولكن بشرط: حال وجود العريس المناسب، ستتوقف عن دراستها؛ وقد كان.

دخلت أحلام بانغلاقها وانعزالها كله عن المجتمع - عدا مجتمعها الصغير في المدرسة والبيت - إلى عالمٍ وجدته باهرًا كبيرًا واسعًا ملونًا، لا يحكمه زيّ كزيِّ المدرسة! لم تستوعب مداركُها ما حولها، تملَّكَها الخوف، هابت التعامل وتوجّست مما حولها. تخبّطت مشاعرها، ممَّا زاد من رغبتها في البكاء، أقبلت عليها مجموعة فتيات في عمرها نفسه تقريبًا، وجدتهنَّ جميعًا يضحكن وتملؤهن البهجة، ملأها العجب، وشعور المَشيب. كان يومها الأول كأصعب ما يكون؛ وبمجرد عودتها إلى منزلها، احتضنتها حوائط غرفتها الصغيرة، وأغلقت عليها بابها؛ لتحكم سجنها كما عهدته. ظلت تُحَدق في سقف غرفتها وهي تعيد شريط الأحداث.

ذلك اليوم الأول الذي يُعَدُّ بعمرها كله. قطع عليها استرسالَ الأحداثِ صوتُ والدتها للغداء، خيم الصمت كالعادة وقت الطعام، ثم انصرف كل واحد من أفراد أسرتها لأداء مهامه، وتبعتهم أحلام وهي تحمل أطباقها إلى المطبخ، ليوقفها صوتُ أبيها يدعوها للمثول أمامه، ارتبكت وكادت الأطباق تسقط من يديها؛ لولا أن أسعفتها يد أختها الصغرى لتتوجّه على الفور نحو أبيها الذي بادرها بسؤاله عن جدول المحاضرات، وألقى تعليماته؛ فيما يختص بالذهاب والإياب وعدم تكوين صداقات... إلخ. انصرفت أحلام، وقد ازدادت رهبةً تصل إلى حد الهلع؛ فهي لا قدرة لها على فهم هذا العالم الغريب، والصراع داخلها بين دكتاتورية ألفتها، وقيود ليس لها في عالمها بديل، وعالم مفتوح لا تحكمه قوانين أبيها، ظلت تائهةً كعادتها خارج جدران بيتها وأسوار أبيها، عانت في كلّ يوم من أيامها؛ التي ذهبت فيها إلى الجامعة، وبالرغم من معاناتها، فإنّها - من داخلها وبمرور الوقت - بدأت تحبُّ هذا العالم، وتنتمي له شيئًا فشيئًا. رأت في حرية الآخرين سعادةً لم تملكها يومًا - وهي ما يسميه أبوها انفلاتًا - ورأت في تحررهم بلا قيودٍ راحةً. أيقنت أن ما تربت عليه ليس له مسمًّى سوى القهر، ولكن أيضًا فيما يختص بها لا يوجد بدائل.

حتى طعم التفوق اختلف لرغبتها فيه. تتمنى ألا تنتهي أعوامُها في الجامعة حتى لا تعود لأَسْر أبيها.

كعادتها بعد إنهاء محاضراتها، عادت إلى المنزل، لكنها بمجرد دخولها بادرتها والدتها بأن عليها أن تهيئَ نفسَها، وتستعدَّ لاستقبال أهل عريسها المستقبليّ، نزل الخبر كالصاعقة على رأس أحلام؛ فالعريس معناه نهاية طريقها في الجامعة. دخلت إلى غرفتها وأغلقت عليها بابها، انهارت في البكاء و لم تستطع استيعاب أنّ اليوم نهاية طريق أحلامها، وعلى الرغم من مشاعرها، فإنها - كالعادة - انصاعَتْ للأوامر، وارتدت ملابسها؛ وحينما أشارت لها والدتُها بالدخول، نفَّذَتْ على استحياء وجلسَتْ في هدوء، من دون أن تنطق بكلمةٍ واحدةٍ.

سارت أمورها كما رأى والدها، وكما نفذت والدتها، لتجد نفسها عروسًا، لم تخالف استسلامها، و لم تحارب من أجل مستقبلها.

سرعان ما انتقلت من بيت أبيها إلى بيت زوجها الذي لم يختلف عنه إلّا في أثاثه، ولطف تحكمه، عرضَتْ عليه أن تكمل تعليمها، ولكن برغم لطفِ ردِّه؛ فإنه قابل طلبها بالرفض؛ حتى تتفرغ لتربية أبنائها ورعايته.

كرّرت أحلام قصةَ كثيرٍ من النساء المعنَّفات في صمت، المقهورات في ضعفٍ، سببه الأكبر المجتمع الذكوريّ والتربية الجوفاء في عصرٍ سادت فيه الدكتاتورية.

obeikandl.com